عن مفهوم عاشوراء

في كل عام يحل اليوم العاشر من شهر الله المحرم تتجدد ذكريات ما حواه من الحوادث التاريخية مثل ما ورد أنه يوم أنجى الله سبحانه وتعالى فيه نبيه نوحا عليه الصلاة والسلام وقومه من الغرق، وفيه أنجى الله سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام من فرعون وقومه، وهو يوم معظم في الجاهلية وفيه تستر الكعبة ، و مفهوم عاشوراء هو يوم فضيل وعظيم في الإسلام، ولم يكن النبي ﷺ يتحرى صيام فضله على غير رمضان إلا يوم عاشوراء كما قال ابن عباس[1]، وصامه عليه الصلاة والسلام كما صامه نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام شكرا لله تعالى الذي نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه.

وقال عليه الصلاة والسلام لليهود:" فأنا أحق بموسى منكم"[2] ثم أمر بصيامه قبل فرضية صيام شهر رمضان.

وورد في فضله أن صيامه يكفر السنة الماضية، كما في صحيح مسلم أن رجلا سأل رسول الله عن صيام عاشوراء فقال:" أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله"[3].

ويستحب صيام يوم عاشوراء ويوماً قبله، مخالفة لليهود، لقوله عليه الصلاة والسلام:" لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع"[4] وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله:" صوموا التاسع والعاشر خالفوا اليهود"[5]

وهذا هو المطلوب فعله شرعا في هذا التوقيت من العبادات، وقد أفلح من ركب سفينة السنة النبوية .

ثم هناك دروس وعظات وعبر كامنة في طيات مفهوم عاشوراء ، وهي صالحة لتزكية النفوس وتربيتها وتقويتها، وباعثة للهمم والأمل والعمل، ومنيرة للعقول والبصائر، وقد علمتنا عاشوراء:

– مدى الروابط الإيمانية التى ربطت الأنبياء وأنهم أبناء علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، " فأنا أحق بموسى منكم"، ولأهمِّية هذه الرابطة الوثيقة؛ أمر النبي ﷺ المسلمين صيام هذا اليوم اقتداءا بموسى عليه السلام، ورغبهم في استمرار صومه بعد فرض رمضان إبقاء لذكر صنيع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام.

– أهمية إظهار شكر الله تعالى بعد البأساء والضراء، وأن الشكر يتحقق بالقلب من حيث إقرارا بالنعم والاعتراف بأنها محض فضل من الله تعالى وحده، أو باللسان من حيث الثناء والذكر أو بالجوارح من حيث الطاعة والانقياد.

– أهمية مشاركة المؤمنين إخوانهم المؤمنين في الأفراح والأتراح مهما اختلفت الأماكن واللغات والأزمنة، إذ فرحة صيام أهل التوحيد الذين صاموا مع موسى على نجاتهم فرحة للمسلمين في صيامهم عاشوراء، وهذا بالفعل ما يعزز في نفوس المسلمين الروابط الإيمانية .

– أن الحق لا بد له من النصر والغلبة مهما طال الوقت، وأما الباطل مهما تضخم وعظم وكثر فإن مصيره إلى الذل والهلاك، وكل من كان مع الحق فهو في المأمن والنصرة، وقد كان موسى عليه السلام مع الحق وقام به ضد فرعون صاحب لواء الباطل القائل لقومه:"{ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } (النازعات: 24)، المتوعد والمتهدد للحق وأهله بالقتل والأذى : {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } (الأعراف: 127). ولكن هزم الباطل وأهله أمام الحق {فأخذناه هو وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} [القصص: 40]، وإنه لموقف حاسم ينتهي بانتصار الحق على الباطل.

– أن المحن تلد منحة وأن النصر مع الصبر، وكل كرب ينزل بالمؤمن فإن معه فرجا لا محالة{وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا} [الأعراف: 137] ولقد لقى المسلمون في مكة قبل الهجرة أنواعا من الأذى فصبروا، ثم فتح الله عليهم بعد الهجرة أبواب النصر والتمكين والرفعة بما صبروا.

– أن الله تعالى في رعاية عباده المخلصين وفي نصرتهم، وقد نصر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام وهو أمام البحر والعدو خلفه، كما نصر النبي ﷺ وهو في الغار .

أن حقيقة معية الله تعالى الخاصة تكون لمن قوي يقينه وكملت ثقته به سبحانه وتعالى، وقد صاح بنو إسرائيل لما بلغ بهم الخوف نهايته عند لحاق جنود فرعون بهم فقالوا:" إنا لمدركون" إلا أن نبي الله أظهر تمام ثقة معيته بالله فـ{ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الشعراء:62) مقالة من يثق بربه، وكذا عقب النبي عليه الصلاة والسلام قول أبي بكر رضي الله عنه حينما كانا في الغار " لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا " فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما.

– أن مقدمات النصر نصر، ولم ينتصر موسى في المعركة مع فرعون إلا بعد التزود بالإيمان ودعوة الناس إلى مبادئ العقيدة الصحيحة وتقرير الحق الذى أوجبه الله تعالى في حياة الناس، وكما هو هدي النبي ﷺ مع أمته حتى النصر، وأن تكون جميع الأعمال لله وفي سبيل الله، ويعنى ذلك أن العبرة بالاتباع والبقاء على الطريق الصحيح إلى الله لا حتمية الوصول إلى الغاية والثمرة. عدم مشابهة اليهود وأمثالهم، في شيء من شؤون عقائدهم وعباداتهم أو عاداتهم وتقاليدهم المختصة بهم.

والخلاصة يستحسن لكل مسلم أن يجدد هذه المعاني ويتلمس مفهوم عاشوراء في نفسه كل سنة، وأن يستثمرها استثمارا موافقا لمقاصد الشرع ومبادئه لكي يمضى على التدرج في معارج الرقي وينفع نفسه وأمته.

[1] ينظر البخاري (2006)

[2] رواه البخاري (2004)

[3] رواه مسلم (1162)

[4] رواه مسلم (1134)

[5] مصنف عبد الرزاق (7839)